قصة

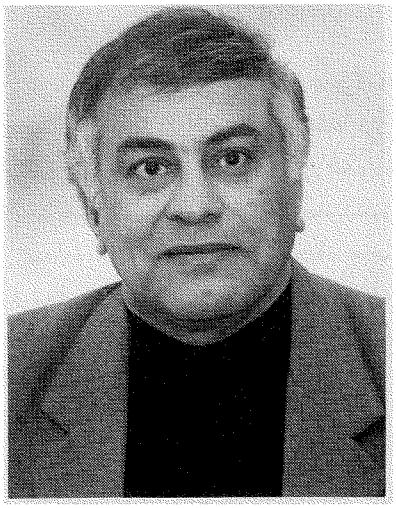

عبد الرحمن مجيد الربيعي

الطريدة

لقد عرفتُها عن قرب، هذا أمر صحيح، تحدّثتُ معها. جمعتني بها مائدةُ طعام حيث كان وجهها لي طوال جلسة زادت عن السّاعة وحيث الطّقوس المملّة للأكل. ثمّ كانت في استقبالي بمكتبها. هبَّت نحوي وكأنّها تلميذة ثانويّة. بنطلون جينز، وقميص ملوّن بدون كمّين؛ فكانت ذراعاها طليقتيْن مثل سمكتين تعابثان الموج. ولأعترف بأنّني غازلتها؛ فالمرأة التي تجابهنا بكلّ هذه الفتنة لا يملك إزاءها رجلٌ متّهم بتاريخ مثقل بالعشق والنزوات مثلي إلاّ أن ينطق إجلالاً للجمال وإرضاء لرفيف القلب ولا يبقى عييّاً يكبت مشاعره السّاخنة لتقلي جوفَه.

إنّ امرأة مثل منى لا يملك رجل مثلي إلاّ أن يغازلها.. وقد فعلتُ. غزل هامس، ستتذكّره، أوقد فيها كلّ غنجِ النّساء الجميلات والعارفات أنهنّ كذلك.

على مائدة الطّعام في الفندق البحري حيث أقمنا تناولنا وجبة الغداء معاً. دعوتُها لذلك فلبّت. وعدتْ أوّلَ الأمر بأنّها ستلحق بي بعد ساعة، ووجدتُ ذلك جميلاً إذ إنّني سأنزل إلى البحر لبعض الوقت.

ارتديتُ ثيابَ البحر وذهبتُ إليه. وجدت السّاحل مغطّى بالأشنان والأعشاب البحريّة بكمّيّات كبيرة جرفَتْها الرّيحُ والأمواجُ، فتعذّر عليّ أن أخترق هذه الغابة التي قد تسبّب لي خدوشاً أو أحد الأمراض الجلديّة. قرّرتُ أن أتوجّه إلى حوض السّباحة الصغير. اخترتُ كرسيّاً لأتمدّد عليه ووضعتُ فوقه منشفتي. وإذا بي أرى طفلاً وقف على حافّة الحوض وأخرج عضوه ليبول في الماء.. كأنّ كلّ المساحة الخالية المواجهة للحوض لم تسعه! صرختُ به، ففرّ هارباً، وفسدت رغبتي في العوم. طمأنتُ نفسي بأنّ عَوْمي المرتجى سيكون في عينيْ منى الملوّنتين الواسعتين كحبّتيْ لوْز.

على مائدة الطعام ثرثرنا. شربتْ زجاجتيْ مبرّدات، ولم تمسّ الخبز. بل اكتفت بالسّلاطة وقطعة اللّحم سألتها:

ربّما تحتاجين إلى ثلاثة كيلوغرامات أو أكثر.

رفعت بيدها الممسكة بالشّوكة وحرّكتها أمامها وهي تقول باسمة:

ـ هكذا أفضل، أحسّني خفيفة قادرة على الطّيران.

ثمَّ استدركتْ وهي تغرز الشّوكة في قطعة اللّحم:

ـ هذا إذا امتلكتُ جناحين.

ـ والآن؟

ـ جناحاي مقصوصان.

وعادت لتضحك ضحكتها القصيرة المتتالية.

قالتْ أيضاً:

ـ رغم أنْ لا علاقة مباشرة لي بفنّ من الفنون أو علم من العلوم فإنّني سعيدة بعملي هنا حيث تتوالى النّدوات ويمرّ من هنا شعراء ورسّامون وسينمائيّون وعلماء آثار كلّهم رائعون. أدخل عالمهم باهتمام وأنصت إليهم.

عادت إلى ضحكتها. أعطتني عينيها بمهرجان ألوانهما. ثمَّ قالت:

ـ لم يتعبني إلاّ الشعراء، ربّما تكون كلمتي غير دقيقة؛ فهم في الواقع لم يتعبوني بل أسعدوني بما يقدّمونه لي من قصائد غزل، يتركونها هديّة لي ويمضون. هل أصدّق قصائدهم أم لا؟

قلت لها:

ـ ولماذا لا تصدّقينها؟ لو كنت شاعراً لما غادرتُ إلاّ بعد أن أترك قصيدة تنهل من عرس الألوان في عينيك.

افترش الحياءُ وجهها وتوقّفتْ برهة عن المضغ ثمَّ سكبت في كأسها ما تبقى من زجاجة المبرّدات.

خرجنا لنجلس أمام حوض السباحة، ورويتُ لها ما فعل الطّفل، فضحكتْ ثمَّ قالت:

ـ عمر ابني ثلاث سنوات إلاّ بضعة أيّام.

ـ وأين هو؟ لماذا لا تأتين به؟

ـ ليس معي. إنَّه مع والده المقيم في العاصمة.

ولم أشأ أن أسترسل في هذا الموضوع؛ فقد نطقت جملتها الأخيرة بألم واضح.

ثمَّ انفضَّتْ أيّامُ المؤتمر وانسحب كلُّ واحد منّا إلى المدينة التي جاء منها. وعدتُ إلى العاصمة لأغرق في مسؤوليّاتي. وتركنا منى هناك... تلك النسمة التي جعلتْ أيّام المؤتمر بكلّ ما فيها من حوارات مزعجة أهدأ وأحلى.

كنّا نشرب الماء المثلّج ونتحاور في موضوع الندوة الذي ظلّ سؤالاً رغم البحوث الكثيرة التي قُدِّمت فيه ورغم كثرة المناقشين في النظام العالمي الجديد وأثره على الوطن العربي.

كانت منى الطراوةَ والصّفاء، يحلّ سلامٌ آمن ما إن تدخل القاعة متفقّدةً سيرَ الجلسات وصلاحيّةَ مكبّرات الصّوت، ملبّيةً كُلَّ طلب يأتيها، وسرعان ما تنسحب إلى مكتبها.

كانت إطلالتها تجعل أصوات المتناقشين أرقّ فتغادرها تلك العنجهيّةُ العربيّة التي تعتمد على طاقات الحناجر المثخنة بدخان السكائر والكحول وعلى الزعيق.

هل يمكن لامرأة غير منى أن تكون ناعمة مثل همسة؟ طريّة مثل أسماك الفرات؟

٢

كان من الممكن أن يظلّ ذلك الوجهُ في منآه... هناك في تلك المدينة الساحليّة التي لم تفتح أبوابَها للسّائحين بسراويلهم القصيرة وأجسادهم القبيحة وروائحهم الزنخة، بل اكتفتْ بفندقٍ واحد تستقبل فيه ضيوفها الذين غالباً ما تأتي بهم ندوةٌ أو مهرجان.

فائزة... صديقتنا المشتركة كانت قبل عام فقط خطيبة صادق رسّام الكاريكاتير الذي اكتشفتُ رسومه قبل أن أعرفه؛ وعندما قدّمه لي أحد معارفي صرنا صديقين، نتفقّد بعضنا في مكالمات هاتفيّة أو لقاءات عاجلة نشرب فيها زجاجة بيرة ثمَّ يأخذنا إيقاعُ أيّامنا اللاّهث.

فائزة هذه، أعادتني إلى هناك عندما قالت لي في رسالتها: «منى تهديك تحيّاتها. سألتني أكثر من مرّة عنّك. هي امرأة حائرة. زواج سريع، طلاق سريع، عودة إلى مدينتها التي غادرتها بضعة أشهر لتقيم مع زوجها في العاصمة، وأمور أخرى لم أعرفها بعد. لكن ألم تقل يوماً إنّ الفنّ قادر على كشف الخفايا حتّى لو لم يعلنها أصحابها؟ إذاً هاتِ ما عندك يا كاشفَ المستور. اكتبْ عن منى، استلَّ من بين مشاغلك وهمومك الفكريّة فسحةً تشبع بها هوايتك الأثيرة في كتابة القصص. أَوْقِدْ خيالاتك واكتبْ لنا قصّةً عنها. ألم تُغْرِكَ امرأةٌ مثلها بهذا؟».

٣

أيُّ تحريض لعينٍ حملته رسالةُ فائزة؟! ليس تحريضاً فقط بل هي تحمل التحدّي كذلك. لكنْ كيف أجعل من هذه المرأة الفاتكة المنسحبة إلى مدينتها وأسرتها وعملها فأرَ اختبار فافترض أحداثاً ووقائع عن حياتها التي تكاد ترسو عند الثلاثين؟

أنا أعرف فائزة بمشاكساتها التي ربّما كانت وراء فسخ خطبة جميلةٍ ـ كادتْ أن تكون نواةَ أسرة ـ بينَ رسّام كاريكاتير مبعثر لا يغيّر بنطاله الجينز إلاّ ببنطال جينز آخر، وشاعرة (أو مشروع شاعرة) نشرتْ بعضَ القصائد الواعدة.

ماذا أقول لها؟

هل أقول: قبلتُ تحدّيك وسأكتب؟ ولكن ماذا أكتب؟ وبأيّة خيوط أمسك حياةً عاديّةً لامرأة ربّما كان في داخلها غليان وفي قلبها جموح لم يروّضْه زوجٌ أو تخفِّفْه أمومة؟

سأترك أسئلتي الآن، وذاتَ ساعة سأحاول أن أكتب شيئاً عن امرأة السّاحل التي قدمتْ بسمةَ السلام للمؤتمرين الذين خرجوا ولسان حالهم يقول: ليقولوا «خراباً دوليّاً جديداً بدلاً من هذه العبارة الماكرة: نظام دولي جديد. أيّ نظامٍ وبداياتُ الفوضى تعمّ الدّنيا»؟

٤

أرِقْتُ من رسالة فائزة رغم أنَّ استفزازها لا يخلو من طرافة. فهي تعرف أنَّني كاتب بالهواية فقط، وعندما أكتب فإنَّ عالم المرأة هو موضوعي الأثير الذي لا يمكن أن يستنفده كاتبٌ واحدٌ لكونه عالماً مليئاً بالأسئلة والأسرار. وقد قلت لها مرّة ونحن نحتسي الشّاي في سيدي بوسعيد:

ـ إنَّ القصص التي أكتبها مجرّد إجازة على الورق، فسحات أهرع إليها، شحذ للخيال، أشياء من هذا القبيل. ولا أريد أن أحمّلها أكثر ممّا فيها.

وتعلّق دون أن تتركني أهنأ بجوابي:

ـ ما تقوله مجرّد تعبير عن الجانب المتزمّت،فيك. لماذا تصرّ على أن تظهر دائماً بمظهر الباحث والأستاذ الجامعي الرّصين؟

أحسستُ بأنَّ فائزة تنطق بما يدين تزمّتي الزّائد ويدين إعلان البراءة الذي أرفعه. إنّني أحسّ بصدق ما تقول. وكم منّيت نفسي بذلك اليوم الذي أغادر فيه الجامعة وأنسحب من عالم التدريس والاقتصاد ونظريّاته وجهامةِ الوجوه التي ألتقيها وأختلطُ بأصحابها في الندوات والملتقيات... حيث الجدّيّة المفرطة، والنّظارات الطبّيّة السميكة،

وأربطةُ العنق، ومناديلُ الصّدر، والكلامُ المنمّق المقتضب كالمعادلات الرّياضيّة... حتّى النكتة إن جاءت فمجيئها مجيء المعجزة في زمن باهت. وغالباً لا تفلح هذه النكتة في إخراج السّامعين عن جدّيّة ندواتهم وتطلق العنان لصدورهم بأن تقهقه حتّى السعال وما يعقبه من بصاق في مناديل الجيب.

وتواصل فائزة محاورتي بشجاعة تفوق سنوات عمرها:

ـ أنا لا أعرف أهمّيّة بحوثك الاقتصاديّة لأنّني لم أقرأها ولا أفكّر بقراءتها، ولكنّني أحبّ قصصك وأطالبك بكتابة المزيد منها.

وكان صادق ينصت لحوارنا هذا وهو يخطّط. وقد أنجز صورة تُظهر فائزة وهي تفتح فماً واسعاً وقد أمسكت بي من عنقي وكأنّها تتهيّأ لابتلاعي.

ـ إنّني لم أنقطع عن كتابة القصص ولا عن نشرها سواء في المجلاّت أو الكتب. أكتب في أسفاري غالباً. وكلّما خرجت من جلسة نقاش ثقيل، أهرع إلى الورق لأتنفّس عليه قصّة.

تضحك بعد أن انتزعت الصّورة وقطّعتها غير آبهة باحتجاج صادق. ثمّ قالت:

ـ أتدري بأنّ من يقرأ قصصك لا يصدّق أنّك كاتبها؟ فهناك عالمان متناقضان فيك: أحدهما جافّ صلب والآخر ليّن وناعم؛ الأوّل عالم بحوثك الاقتصاديّة والثاني عالم قصصك.

ـ بحوثي هي الواقع وقصصي هي الحلم.

فتقول مشاكسة:

ـ ولماذا لا يكون العكس؟

وأسألها:

ـ كيف؟

ـ كأن تكون بحوثك هي الحلم، ولكن قصصك هي الواقع. كلّ ما يصل إلينا ونحسّه هو الواقع، أمّا النّظريّات المسطّرة على الورق فهي مجرّد أحلام.

أصفن قليلاً:

ـ هذا تفسيرك الخاصّ، ومع هذا فالعالمان متكاملان.

٥

منى، منى، إنّني لا أعرف منها إلاّ اسمها الأوّل. تأتي من مدينتها السّاحليّة حاملةً ضجَرها. تسرق زمن رجل يجلس وراء مكتبه يبدأ كتابة بحث لمؤتمر سيعقد في الرّباط خلال الشهر القادم. أوهام البيروسترويكا وأخطاؤها: هذا هو المحور الذي اخترته. ولكن ها أنا أُواصل مضغ العشب السّماوي غائصاً في كهوف الذّاكرة الحجريّة، علّني أنقّح سطور أيّامي من أخطائها وأقتل تنّين الرّغاب العصيّة على المضغ.

أعوم كأنّني في ذلك السّاحل المغطّى بالأشنان. أشرئبّ مثلَ برج أفريقي، منه يتمّ رصدُ القراصنة القادمين بشهواتهم وصدورهم العارية.

أذكر ذلك الصبيَّ الذي وقف على حافة الحوض وأخرج عضوه الصّغير الذي لم تُنتزع منه قلفتُهُ بحفل ختان بهيج.. ذلك الطفل وهو يراقب بحبور شلاّلَ بوله الذي قطعَتْهُ صرختي ففرّ هارباً.

كانت منى قليلة الكلام؛ وإنْ علّقت، فغالباً ما يأتي تعليقها على هيئة سؤال قد يسبّب إرباكاً للمتكلّم فيحرّك يديه وقد يحكّ شعر رأسه بحثاً عن جواب لسؤال لم يتوقّعْه.

شعرها غالباً ما تكوِّرُه إلى أعلى وتثبّتُه بمشابك صغيرة فيبدو لمن يراه قصيراً؛ ولكنّها ما إن تطلق سراحه حتّى يعلن عن طوله وغزارته. ومن الصّدر تتدلّى سلسلة ناعمة على صدرٍ لا يبزغ منه نهدان وافران بل هرمان راضيان فوق هذه الأرض الصافية. هل كانت تتعمّد فتح الزرّ الأخير من قميصها الوردي لأرى السوتيان النّاصع الأبيض، أم تُراهُ فُتِحَ دون أن تنتبه له؟ امرأة تثير بصمتها، بفردوس الألوان في عينيها.

حلمي الغامض
يتزنّر بهذا الأرجوان المائج
يفيض عليّ ساتان سمرتها
طريدتي في قيظ الصّحارى
ضحكةُ عصفورٍ يتفيّأ
ترفرف في القلب
يناديها الوترُ الخامد
تقترب فتصخب الفراشات
تتنهّد فيتجسّد حلمي الغامض
حلمي الواضح المعلوم

وجدتني أخطّ هذه السّطور منحّياً الكتابَ الذي وضعته أمامي وعلى غلافه وجه غورباتشوف والنّدبة البغيضة على جبينه الأصلع.

عنقها الأغيد بانحناءته الجميلة يبدو وكأنّه عنقُ ملكة فرعونيّة: نفرتيتي في صورها الشّائعة. واكتشفت أنّها حين تطلق شعرها الغزير يزداد عُمق عينيها ويضجّ بألوانٍ أخرى تجمع بين خضرة الزيتون وتألّق الرّطب الذهبي في نخلة بصْريّة.

٦

كتبتُ لفائزة جواباً قلت لها فيه: «سأحاول أن أكتب شيئاً عن منى... لا بسبب استفزازك لي، ولكن لأنّها تركت فيّ شيئاً مازلتُ أجهله. وقد أبقى على جهلي به، ولكنّه سيشكّل لي دافعاً للكتابة عنها. أرجو أن لا تخبريها بشيء. سنجعل الأمر مفاجأةً لها. عِديني بذلك».

منذ أسابيع لم أعثر على اسم فائزة في الصّحف. ربّما وضعها انفصالُها غيرُ المتوقّع عن صادق في حالة من الإحباط، فغابت قصائدها التي كنت أصفها بالخضراء؛ فهي ترتحل في محاريب الحروف، واحاتها، باحثةً عن الخضرة: خضرةِ الكلمة، خضرة الرّوح، الحياة، الجسد، الأحلام. كأنّ قصائدها تظلّ ناقصة ما لم ترد فيها كلمة «الخضرة» ومشتقّاتُها عدّة مرّات.

لعلّها بما تكتب لي مستحثّةً تعبّر عن إحساسها الخاصّ؛ فكأنّها تحثّ نفسها. ورغم كثرة مشاغلي فإنّني أحاول أن أردّ على رسائلها التي تكتبها لي ولغيري في الوقت نفسه. ومن الممكن أنّها تمنّي نفسها بأنّني سأحدّث «صادقاً» عنها، ومرّة غامرتْ بأن اعترفتْ لي بأنّها مازالت تحبّه، ولكنّني لم أغامر وأسألها: إذاً لماذا حصل ما حصل؟

تحوّل صادق عن فائزة إلى آمرأةٍ أخرى: طالبة فنون معجبة برسومه. وانسحبت فائزة إلى مدينتها. عادت إلى أوراقها. وكم كنت معجباً باحتفاليّتها التي تعانق بها اللّغة، وإن كنت خائفاً عليها من هذا الانبهار. وأذكر أنّني حذّرتها من ذلك حتّى لا تصبح كتاباتها مجرَّد تهويمات لغويّة جميلة. ويومَ توصَّلَتْ إلى كتابة قصيدة تلافتْ فيها كلَّ المآخذ هتفتُ بها:

ـ اعتبري البداية من هنا.

ـ وما قدّمته من قبل؟

ـ تجارب لابدّ منها، وهي التي قادتك إلى الشّعر الحقيقي.

وقد وجدتُ على وجهها الأسمر بسمة انشراح صافية. لكن حين تلحّ عليّ، أعيد قراءة السّطور التي كتبتُها عنها، فإذا بها سطور تصلح لأن تُعَنْوَن لامرأة أخرى.

كيف أقضي على هذا الاستفزاز الذي زرعتني فيه اللّعينةُ المشاغبةُ فائزة؟ هل تريد أن ترتّب علاقة على هواها؟ ترى بماذا حدّثت مُنى عنّي؟ هل قالت لها شيئاً محدّداً؟

ماذا أكتب عنها؟ وكيف؟ أيّة قصّة، وهي لا قصّةَ لها معي؟ قصّتها مع الآخرين. معلومات باحت بها على عجلة وكأنّها تحدّث نفسها. زواج، شهر عسل في جزيرة صقلية. بدأ النقار فيه منذ الأسبوع الأوّل. لكنّ الجنين نبت في الأحشاء وما إن رأى النّور حتّى افترقا، أنهيا الأمر بالرّضى. تصافحا. تنازلتْ للأب عن الطفل مقابل أن تراه مرّة في الأسبوع. الأب ترك الطّفل عند أمّه وتزوّج بأخرى. وهو يريد امرأة في بيته، لا مزاج له لمواجهة النّزوات. يريد أن يعيش بأمان، أحلامه ممكنة وكلّها في اليد، لم يتحزّب، ليس مهتمّاً بما يجري في العالم من أحداث، مهووس بالمسلسلات التلفزيونيّة. من أنصار نادي الترجّي الرّياضي. لم تفته مباراة واحدة من مبارياته. له حساب مصرفي مقبول.

وأمّا هي فقد عاشت عند عمّتها الأرملة بعد أن انفصل والداها وهي في الخامسة. تزوّج كلّ منهما وكوّن أسرته. صار لها إخوة وأخوات من أمّها وأبيها. تزورهم، تحبّهم، لكنّها بقيت في بيت عمّتها التي زحف عليها الكبر. صارت مسؤولة عن البيت وعن تطبيب هذه العمّة؛ وعند وفاتها انتقلت إلى بيت أمّها الذي سرعان ما غادرته عندما جاءها من يطلب يدها.

هذا ما أعرفه عنها، وما فاهت لي به. لكنّني أقرّ بأنّني لو استرجعتُ الوجوه التي استأثرتْ باهتمامي لكان وجه منى يتصدّرها؛ فهو وجه من الصّعب أن يُردم وتتراكم عليه الوجوه.

كانت لها عفويّةُ طفلة: في مشيتها، في حركاتها. ولها أيضاً نزق مراهقة. كأنّها لغمٌ لابدّ من أن ينفجر مهما بقي مدفوناً في ساحل المدينة تلك، حيث الهدوء القاتل والموج الذي لا يتكسّر على صخرة بل يمتدّ على مساحة من الرّمل النقي تنصب الأسر فيه خياماً صغيرة احتماءً من الشّمس.

أُحسّ بأنّ أحاديثي معها لم تُستكمل وأنّني لابدّ أن أفعل ذلك يوماً. كأن أدير رقم هاتفها وأسألها عن اليوم الذي تأتي فيه إلى العاصمة وسترحّب بدعوتي لنتناول الطعام معاً.

أذكر، بعد لقائنا الأوّل على مائدة الطعام منفردَيْن في فندق مدينتها الوحيد، لقاءً آخر عندما غادرتُ قاعة المحاضرات، هرباً من دخان السكائر ومن الاشتباكات الكلاميّة، وتركتُ ساقيّ تتحرّكان جيئة وذهاباً على امتداد الممرّ المحاذي للقاعة.

ولعلّها انتبهتْ لي وأرادت أن تعرف إن كان هناك من أمر يشغلني، أو أنّها أحبّت أن تملأ وحدتي وتشعرني باهتمامها.

سمعت نقرات حذائها ذي الكعب العالي وهي تقترب منّي متسائلةً مع بسمة سخيّة جاد به وجهها:

ـ هل تعبت؟

آثرتُ أن أشرب بسمتها أوّل الأمر قبل أن أردّ:

ـ ليس تعباً، ولكن لابدّ من هذه الفسحة. فالمؤتمرات اللّعينة تمنحنا من بركاتها المزيد من أوجاع الظّهر.

ـ ألا تتريّض؟

ـ ليس دائماً، ولكنّني منتبه لهذا الجسد فقط. خمسة وسبعون كيلو غراماً منذ الخامسة والعشرين وحتّى.. لكن لا، بدون كشف أسرار.

ـ أتخاف عمرك؟

ـ أبداً. إنّني أحثّ الخطى نحو الخمسين.

وتمتمتْ:

ـ عمر جميل.

ـ لكنّه ليس أجمل من ثلاثينك.

وهنا أطلقت حنجرتها بضحكة كالغناء، فغيّرتُ دفّة الحديث لأقول لها:

ـ أيّ غبيّ كان الرّجل الذي تزوّجك؟

وتمنحني سعة عينيها لأغرق في هذا الكرنفال اللّونيّ الغريب وفيهما تساؤل حائر، فهي لم تستطع أن تدرك المغزى الذي قصدته. ولم أتركها على هذه الحال طويلاً، بل ركّزتُ عينيّ في نثيث الفتنة القادم من عينيها وأنا أقول موضّحاً:

ـ غبيّ، لأنّه ارتضى أن يطلّقك. ولو كنتُ مكانه لقيّدتُكِ وأغلقتُ عليك باب الدّار وأبقيتك سجينتي الأبديّة.

ضحكتْ بانشراح:

ـ أترى الطائر في القفص جميلاً؟
ـ أحياناً.
ـ لكنّه ذليل، متعب، متّسخ الرّيش، وحبّنا له حبّ عطف لا غير.

صفنتُ قليلاً وأنا أنصت إليها بانبهار. وهنا قالت:
ـ دكتور يوسف
ـ نعم
ـ ألا تحفظ الوجوه التي تمرّ بك؟
ـ أوضحي أكثر.
ـ هل تتذكّرني أم لا؟

أجبتها بشيء من الجزم:
ـ أعرف شيئاً واحداً هو أنّ وجهك ليس غريباً عليّ. وربّما كان هذا هو سبب الأُلفة التي أعاملك بها.

قالت وهي تحرّك يدها وفي صوتها نبرة مزاح:
ـ هذا كلام عامّ.

وعدتُ إلى القول:
ـ أوضحي، أرجوك فرأسي ثقل.

تساءلتْ:
ـ أتعرف صالح العامري؟
ـ وكيف لا أعرفه؟ هو واحد من أقرب أصدقائي إلى قلبي.

وأردفتْ موضحة:
ـ لقد كنت على علاقة قويّة به وعلى مدى سنوات. وكم من مرّةٍ قدَّمَكَ لي وقدَّمني لك عندما كنّا نتلاقى في أسواق المدينة القديمة حيث يحلو له أن يتسكّع بصحبتي ونتناول طعام الغداء في مطعم شعبي. وكم كنتَ تبدو لي متعباً مهموماً وأنت تنوء بحقيبتك اليدويّة المليئة بكتبك وكراريس طلبتك.

كوّرتُ قبضتي وصرت أضرب بها جبيني وأنا أردّد:
ـ لقد كبرتُ ولا فائدة منّي، وإن كان من المسموح أن أنسى كلَّ تفاصيل حياتي، فإنّه من غير المسموح لي أن أنسى هذا الوجه الجميل.

ضحكتْ وقالت:
ـ ربّما تغيّر مظهري كثيراً. أحسُّ بالهرم في داخلي كعجوز منسيّة في غرفة من غرف الدّار. مع صالح كانت الحياةُ لا تسعني، وها هي ذي التجربة تضرب رأسي في الجدار.

انتزعتْ صوتَها من يمّ الألم وهي تسألني:
ـ وهل تراه هذه الأيّام؟

قلت:
ـ أحياناً، كنّا أكثر تلازماً قبل سنوات. يومها كان لدينا مزيد من الوقت والجنون.

وبخبث تساءلت:
ـ والآن؟
ـ شحّ الوقت وصار الجنونُ وقاراً زائفاً كما ترين... ربطةُ عنق، وكلامٌ كلُّ حرفٍ فيه له مكانه.

كنّا قد توقّفنا ولمّا كانت قامتي أطول من قامتها فإنَّ عينيها كانتا تزدادان سعة وهي تسدّدهما لي منصتة، وكأنَّ وقوفنا في بقعة تسلّلت إليها الشّمس قد جعلني أرى في هاتين العينين ألواناً أخرى أكثر إشراقاً.

تأمّلتْني ثمَّ نطقتْ:
ـ لقد أحببتُه.

ثمَّ كرّرتْ ما فاهت به، ثمَّ أضافت:
ـ ربّما كان هذا الحبّ وراء ارتباك زواجي. لا أدري كيف تواصلتْ علاقتي به. كان عليَّ أن أتوقّف بعد أن عرفت بأنَّه متزوّج وله طفلان. ظننت أنَّها مغامرة، وأنا لست ضدّ المغامرات، خاصّةً مع نجم تلفزي مشهور، ولكنّ المسألة كانت أكبر، إذ اكتشفتُ أنّني مُتورّطة بحبٍّ لا فكاك منه.

وواصلتْ بوحها:
ـ كان صالح حذراً من الإفصاح، وكلماته تلزمه بالفِعْل. مرّات كنت أقول إنّني بالنّسبة له مجرّد امرأة جميلة يأوي إليها من إيقاع حياته الرّتيب، وقد جئته بنفسي أسعى على قدميّ ولم يسع هو إليّ، ولكنّ المفاجأة التي أبكتني وأفرحتني في الوقت نفسه هي اعترافه لي ذات لحظة وَجْد بأنَّه أحبّني.

وهنا تحرّكتْ من وقفتها، وجاريتُها بما فعلت. كانت تطأطئُ رأسها وكأنَّها تعدّ البلاطات الملوّنة التي نخطو فوقها، قالت:
ـ عندما أخبرتني أمّي أنَّ هناك من يطلب يدي قلت لها إنّني موافقة. فاستغربت وتساءلت إن كنت أريد الهروب من الحياة معهم. إذ كيف أوافق على الزّواج وأنا لم أعرف أيّ شيء عن الزوّج؟

كانت فائزة قد خرجت من باب القاعة كأنَّها أرادت أن تتفقّدنا وقد طال غيابنا عن عالم الندوة. وعندما لمحتنا دخلتْ ثانيةً، فأكملت منى:
ـ أردتُ بهذا الزّواج أن أنهي علاقتي بصالح وقد وصلت إلى مرحلة الخطر. فأنا لا يمكن أن أتحمّل مسؤوليّة أسرة تتهدّم وقد عشت التّجربة بانفصال والديّ. ولكن بعد أن أصبح الزّواج أمراً واقعاً أعيشه مع رجل كان في غاية اللّطف معي أُصبت بالذّعر. فكان الطلاق، سببه الأوّل صالح. وهناك أسباب أخرى تتعلّق بفيزياء العلاقة الجسديّة بين رجل وامرأة جمعهما عقدُ زواج أكثر ممّا جمعهما حبّ متبادل.

وجدتني أقترب منها وأقبّلها على جبينها ثمَّ ابتعدت عنها قليلاً؛ فالمشهدُ مؤثّر ولا حلَّ إلاَّ بأن أفتح لها ذراعيّ لتبكي على صدري. لكنّ المكان غير ملائم لمشهد إنساني يأخذ أقصى حالات التجلّي والصّفاء.

وتذكّرتُ صديقي صالح العامري الذي يصرّ على ارتداء البذلة الكاملة وربطة العنق حتّى في أيّام الصّيف اللاّهبة. وكم كان يمتح شاربيه من اهتمام: أكثر من نصف ساعة كلّ صباح كما باح لي ذات مرّة ليبقي على أناقتهما التي تميّز وجهه.

كنّا متلازمين في تلك الأيّام الغائرة: أستاذَ اقتصاد يكتب القصّة بسرّيّة تامّة، وفنّاناً حالماً في رأسه مشاريع كثيرة أفلح فيما بعد في تحقيق معظمها.

قلت لها وكأنّني أخطب في حفل:

ـ اسمعي، مُنى، أنتِ بحاجة لرجل مجنون، يجعلك تحبّينه فيشفيك من نزف حبّ كان... رجلٍ لا يسألك عن الماضي ولا يتوقّف عنده. ينبهر بك كما أنت الآن. ويأخذك فوراً إلى البلديّة ليتزوّجك ويجعلك تنجبين كلّ سنة طفلاً ويغرقك في هذا العالم.

وأطلقتْ صوتها بضحكة عالية كان حياؤها يمنعها من إعلانها بهذا الشّكل الحرّ.

ولكن فائزة داهمتنا وهي تردّد:

ـ أيّ انسجام هذا؟ وماذا بعده؟ احذري من الدكتور يوسف فهو ليس أستاذ اقتصاد فقط.

كانت منى آنذاك تبتسم وهي تتملاّني وأنا أقف أمامها وأشكّل لها النّقيض للرّجل الذي أحبّته، لصالح العامري: مدمّر قلوب الفتيات كما كنت أمازحه دوماً.

قالت موجّهة كلماتها إلى فائزة وهي تشير بسبابتها نحوي:

ـ هذا رجل مختلف.

وتساءلت فائزة بمكر:

ـ مختلف؟

وأجابتها مسرعة:

ـ عن الرّجال الذين ترينهم.

وصرختْ فائزة:

ـ ولكن احذري؛ فتصريحٌ كهذا ربّما وراءه ما وراءه؟

وتمتمتْ منى وهي تنسحب باتّجاه القاعة:

ـ فسّري كلامي كما تحبّين.

وبقينا برهة من الوقت يتأمّل واحدنا الآخر، أنا وفائزة. ثمّ استدرتُ متوجّهاً نحو القاعة دون أن أعلّق بشيء.

٧

ماجت الأفكار في هذا القحف المحموم، صارت تقرصني باستفزاز، انفسح التساؤل السّخيّ، استيقظ مشرقاً بعد ذلك الأفول.

ها أنا نشوان كأنّ الوجد يفيض بي، أنا السّادرَ في أوهامي كالأعمى، شريدَ المرارات الشّائنة، المرتدي حلّةَ الوقار الزّائف، أطوي جناحي على حلم يُسْلمني إلى حلم، مخالب الصّمت تدميني، أعارك الغرين على شاطئ نهر غامض، أعوم باتّجاه السّاحل، أحاول أن أصله بكلّ ما لديّ من قوّة.

أقتربُ من التليفون بعد أن أنظر في ساعتي لأتأكّد من أنّها في مكتبها الآن. وبعد أن أدرتُ رقمها الذي عثرت عليه بصعوبة بين الأرقام المتراكمة في دفتري، أتى صوتها وهو يرمي بكلمة «آلو» فقلت:

ـ لقد اشتقت لهذا الصّوت.

فهتفت من قلبها:

ـ دكتور يوسف أين أنت؟ لماذا اختفيت؟

ـ أنا موجود ولم أختف. تذكّرتك وها أنا أسمع صوتك.

ـ الآن تتذكّرني؟

ـ ليس الآن فقط. قُولي دائماً. ولكن امرأة رائعة مثلك يجب أن يكون لي مزاج خاصّ كي أستطيع أن أتحدّث معها وبالشّكل الذي يتناسب مع جمالها.

وقبل أن تعلّق سألتها:

ـ متى ستكونين في العاصمة؟

ـ مساء السّبت القادم.

ـ هل أعتبر نفسي على موعد معك صباح الأحد مثلاً؟

وأجابت:

ـ ممكن جدّاً. ولكنّني لن آتيك وحدي.

ـ مع من إذاً؟

ـ مع الأستاذ حازم ابني، شاب يملأ العين رغم أنّه في الثالثة من عمره فقط.

ثمّ أطلقت ضحكة فرح مغرّدة. قاطعتها بتحديد المكان والوقت للقاء الأحد قبل أن أطبق سمّاعة الهاتف مودّعاً.

تنفّست ملء صدري بعد أن حدّدت الموعد مع منى. سأراقبها في حالة جديدة هي حالة الأمومة، وبعد ذلك قد أعيد ترتيب ما تجمّع في ذاكرتي من حوارات معها وانطباعات عنها علّ كلّ ذلك يشكّل مادّة لكتابة قصّة؛ وإن لم يحصل ذلك فليس الأمر مهمّاً إلى هذا الحدّ، ويجب أن لا أنساق وراء لعبة فائزة التي استفزّتني بها وجعلتني أتترق كلّ هذا الوقت. وقد عدت إلى بيتي مبكّراً لأنعم بقيلولة تعيد للرّأس توازنه.

توقّفت أمام مكتبي ملقياً نظرة على الكتب التي ستشكّل مصادر بحثي. كان الكتاب الذي يحمل وجه غورباتشوف فوقها وكأنّه ازداد بشاعة بندبته الكريهة على جبينه الأصلع.

التقطتُ الكتاب ثمّ قلبته، ووضعت فوقه كتباً أخرى ثمّ غادرتُ باتّجاه غرفة نومي.

حلمي الغامض.

يتزنّر هذا الأرجوان المائج

يفيض عليّ ساتان سمرتها

طريدتي في قيظ الصّحارى.

تونس